



كان لافتاً أن الهجمات الإسرائيلية فجر الخميس، 10 مايو/ أيار الجاري، قد تمت بعد ساعاتٍ من مغادرة رئيس حكومة الاحتلال، بنيامين نتنياهو، موسكو إلى تل أبيب، فالدولة العبرية تريد تحييد روسيا عن أي مواجهات مع إيران في سوريا، وعن أي استهدافات لموقع عسكرية للنظام مرتبطة بالوجود الإيراني. وقد جاءت الهجمات مقرونةً بالسلوك الروسي، تثبت هذه القاعدة في النزال الإيراني على الأرض، وفي الأجواء السورية. وتدرك موسكو أن أي تدخل في هذه المواجهات قد يستدرج تدخلاً أميركياً، مما يعتبر حينها كسرًا للمحظورات. وقد أوضح نتنياهو أنه أبلغ المسؤولين الروس بالهجمات قبل وقوعها.

تدرك إيران هذه المعادلة. ولها تفادى توسيعة نطاق الحرب المحدودة. وقد جاء إطلاق الصواريخ على الجولان ليلاً الأربعاء 9 مايو/ أيار الجاري كإجراء عسكري لترميم المعنويات، ورفع الحرج، بعد استهدافات إسرائيلية متكررة لموقع عسكرية إيرانية دونما رد يذكر. ولا وجود لمواجهةٍ مع الاحتلال الإسرائيلي في الأجندة الإيرانية التي ترتكز على تكريس الوجود الإيراني العسكري والاقتصادي والمذهبي، ودعم حزب الله في لبنان، وتأمين طريق برّي يصل طهران بالبحر المتوسط في لبنان عبر العراق وسوريا.

أما تل أبيب، فلا ترغب بحربٍ شاملة، تزعزع عقيدة حرب "نظيفة" بأقل خسائر وأضرار تذكر. وجُل المراد إسرائيلياً هو تخفيف مستوى التسلح والعسكرة الإيرانية في سوريا إلى أقل مستوى ممكن، والتركيز على حرب إيران الخاصة بتعزيز وجود النظام في دمشق التغيير الديمغرافي، وصولاً إلى تغيير هوية سوريا، بحيث تصبح على غرار هوية العراق السكانية والاجتماعية. ولها تمسك طهران، ومعها حزب الله، بسياسة ضبط نفس طويلة المدى، وهو ما برهن عليه، على سبيل

المثال، حزب الله الثاني عشر عاماً منذ آخر حرب إسرائيلية عام 2006، وقد لوحظ أن نائب رئيس لجنة الأمن القومي الإيراني، أبو الفضل حسن بيغى، قد نفى الخميس أن تكون بلاده من أطلق صواريخ على موقع تمركز الجيش الإسرائيلي في الجولان المحتل. وقال لوكالات سبوتنيك الروسية، إن جيش النظام السوري هو من استهدف خط المواقع الأمامية للجيش الإسرائيلي في الجولان بعشرين صاروخاً.

ولا تمانع روسيا سياسة ضبط النفس هذه بل تحبّذها، فهذه الدولة "الكبرى" تنهك في الإشراف على عمليات الاقتلاع والتهجير من المدن لفئة اجتماعية بعينها، وحشرها وحصراً في الشمال السوري، ليس بعيداً عن الحدود مع تركيا (استلهاماً لتراث قيصري في اقتلاع شعوب وأقوام من بلدانها، كما حدث مع الشركس من القوقاز والتتار من القرم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فضلاً عن استلهام التراث السوفياتي في قمع انتفاضات الشعوب، كما حدث في بوهابست ويراغ في خمسينيات القرن الماضي وستيناته) وفي هذه الأثناء، تتقدّم جموع النازحين إلى الشمال، أو ما بقي من مراكز طبية بغارات عسكرية روسية متواترة ترفع منسوب النصر على السوريين، في وطنهم. وكل من موسكو وطهران يتمسّكان بمنح أولوية مطلقة للتمسّك بالغنيمة السورية ومحاولة تحيد العالم كله عما يجري في هذا البلد، كما تلعب موسكو بأقل قدرٍ من النجاح دوراً إطفائي في التوتر الإيراني الإسرائيلي، وطمأنة تل أبيب بأنَّ الوجود الإيراني لا يستهدف تل أبيب من قريب أو بعيد، وإن استعادة الجولان المحتل غير مطروحة على الأجندة، فهناك أمور استراتيجية "أكثر أهمية" تشغّل بالكلِّ من طهران وموسكو ونظام دمشق. ومع ذلك، تتمسّك تل أبيب بحرية الحركة والمبادرة العسكريتين، كلما اقتضى الأمر ذلك من وجهة نظرها. ولم يجد المسؤولون الروس ما يعقبون به على التصعيد الإسرائيلي أخيراً سوى أنه "مثير للقلق". كما جاء على لسان وزير الخارجية، سيرغي لافروف.

وأمريكا لا ترغب بالتورط المباشر في حرب مفتوحة، تفادياً لمواجهة مع القوات الروسية، وخشية أن يفتح الإيرانيون جبهة على الوجود الأميركي في العراق، وكذلك لأنَّ الرئيس ترامب يتطلع لإنهاء الوجود الأميركي في سوريا، وليس للدخول في مجازفات صعبة.

والراجح أنَّ هذا الوضع سوف يستمر أمداً غير قصير، فموسكو كما يدل سلوكها لا تمانع، من طرف خفي، في إضعاف الوجود الإيراني، ولكن ليس إلى درجة استئصاله، فإيران شبه المعزولة دولياً تتسبّب العلاقة معها ببعض الحرج لموسكو، وخصوصاً بعد ما آل إليه التحالف الروسي مع بيونغ يانغ من فشل. علاوة على ما تشعر به موسكو بأنَّها حققت كثيراً من أهدافها في سوريا، ولم يعد هناك من خطر وجودي على النظام في دمشق، فيما عمليات تصفيية المعارضة الوطنية المسلحة، وإنما عدد السوريين السنة وتصفيتهم وجودهم في العاصمة دمشق وفي حمص، تسير بنجاح وعلى قدم وساق (قاعدة حميميم تبيّث على موقعها تقارير تفيد بتحريم وجود معارضين سوريين، وتجریمهم حيثما تنتشر الشرطة الروسية!). وتقوم في الأثناء بتعويض طهران بالوقوف إلى جانبها بما يتعلق بالاتفاق النووي، فضلاً عن التعاون العسكري والاقتصادي معها، وتسعى إلى التجسير بين طهران والعواصم الأوروبية، لعزل الموقف الأميركي المنسحب من اتفاق فيينا 2015، وإن كان ذلك ليس ميسوراً، فما زالت العواصم الأوروبية الرئيسية تعمل على حل وسط، يقضي بتعديل الاتفاق أو وضع ملاحق له.

وفي نهاية المطاف، التصعيد الإسرائيلي ضدَّ أهداف إيرانية ومواقع للنظام مرتبطة بشكل أو باخر بالوجود الإيراني، مع

الاعتصام بموقف دفاعي محدود، يسحب الورقة الدعائية الإيرانية بنصرة القدس، والتي دأبت على تغريب ضحاياها السنة بها كما حال بعض فلسطيني مخيمات سوريا)، كما أن أطنان الدعاية الإيرانية حول إزالة إسرائيل، تصادف امتحانا عسيرا لها بعد انكشاف الاستراتيجية الإيرانية التي تقفز عن أي مواجهة مع الاحتلال في الأمد المنظور. على أن جملة هذا الوضع ستظل مرتبطة بدينامييات التمكين، وفق المنظورين، الإيراني والإسرائيلي، ومدى تمسك "المجتمع الدولي" بوضع نهاية سياسية عادلة للأزمة السورية تلبي الحد الأدنى من حقوق أغلبية السوريين، والأمر مرتبط أيضا بتفاعلات الموقفين، الأميركي والإسرائيلي، المستقبلية من الملف النووي الإيراني في حال اتجهت طهران إلى "التخصيب"، كما يقترن الأمر بالخطط الأميركيّة لوضع خطة أو مبادرة ما، ومدى اقترابها من الوفاء بالحقوق الفلسطينية، وكبح جماح الاحتلال، وتثبيت حق الفلسطينيين في اتخاذ القدس الشرقية عاصمةً لدولتهم المستقبلية. فالفلسطينيون يجدون مصلحة لهم في إضعاف الوضع الإسرائيلي في أية مواجهة ما زالت مستبعدة مع إيران، ويستثمرون أية توترات إقليمية لتصعيد نصالهم السلمي المشروع ضد دولة الاحتلال.

المصادر:

العربي الجديد